قصّة قصيرة

موت النجّاب

«باب اللحود مش زيّ باب البيت كتفك عريض وازاي خشّيت»
(عدودة مصريّة)

خيري عبد الجواد

حتّى عبد الرسول النجّاب رأى بنفسه رؤيا موته. ففي الفجر قام من نومه فزعاً، أشعل لمبة الجاز وجلس على الدكّة التي كان ينام عليها في ركن عشّته الخوص. وضع رأسه بين رجليه بعض الوقت، وأحسّ بخيوط الفجر الأولى فقام وتوضّأ وصلّى ركعتي السنّة أتبعها بركعتي الفرض، وحين انتهى بحث عن عصاه التي يتوكّأ عليها وطبلته الصغيرة المبطّطة، وقطعة الجلد التي ينقر بها على الطبلة. خرج وأغلق الباب وراءه، وكعادته كلّ يوم رفع يده إلى جبهته جاهراً بالسلام: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون. ثمّ سار بين المقابر المرصوصة بشواهدها القصيرة، متوقّفاً أمام كلّ مقبرة قارئاً الفاتحة على أهلها ذاكراً أسماء ساكنيها. فكّر: اليوم تكون من أهل الترب يا واد يا عبد الرسول، سنوات طويلة مرّت هنا وأنت لا تدري، لا عيِّل ولا تيِّل، لا أهل ولا صحبة ولا يحزنون، كلّ ما تفعله أن تزعق كما الغراب النوحي حتّى تشاءمت الناس منك، فهربت إلى هنا، حيث الصمت سيِّد كلّ شيء، لا أحد يسأل عنك إلّا إذا حدثت مصيبة، ساعتها، يجيئون إليك، يوقظونك في أيّة لحظة، فتأخذ عدّتك وترحل، تجوب القرى والبلاد، تنشر الخبر في كلّ مكان، فيأتي الجميع لوداع الفقيد، وترجع أنت إلى مقابرك في صمت، ياه، زمن غريب.

لمّا انتهى من مروره اليوميّ اتّجه إلى البلد وهو يجرّ رجليه جرّاً، وفي القلب كانت رجفة، كيف يخبر أهل البلد؟ وبأيّ طريقة يخبرهم؟ هل يصفونه بالجنون، أم أنّهم سيصدّقونه؟ هو الذي لم يكذب في حياته قطّ. في الزمن الفائت، ما كان يخرج من الترب إلّا لسبب، وكان ظهوره يعني سماع خبر موت أحد، اليوم سوف يخرج للمرّة الأخيرة، واليوم هو الوحيد العارف بمن سينعاه، لن يخبر أحداً بما رآه في منامه، هو على يقين ممّا رآه، فالرؤيا واضحة، وهي تعنيه هو دون غيره، وحدّث نفسه: طبّاخ السّم يذوقه. وأصبح الآن وسط الـ ١١ وكانت الشمس قد طلعت فبانت الحواري الطينيّة الضيّقة المندّاة ببخار الصبح، وبدأ الفلّاحون يخرجون بالبهائم في طريقهم إلى الغيطان، حين رأوه واقفاً طويلاً بجلبابه المقطّع وشعره الأبيض المنكوش ولحيته التي تغطّي رقبته. كان منظره مهيباً، ووقف الجميع ينتظرون خبر موت أهل البلد، وكان واقفاً لا يعرف من أين يبدأ. ولم تدم حالة تردّده، فقد وضع الطبلة في يده. وشبك عصاه في ذراعه، وأمسك الجلدة بين أصابعه، وبدأ ينقر نقرته المميّزة التي يعرفونها، والتي تبدأ بنقرة واحدة، ثمّ أربع نقرات متتالية هكذا: تم.. تتم تم تم. وبدا صوته ضعيفاً ومبحوحاً، وأصبح الآن عالياً صاخباً: البقاء لله وحده، يا أهل البلد، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عبد الرسول النجّاب يموت اليوم، الحاضر يعلم الغائب، ولا أحد يمشي لكم في مكروه. وكما توقّع، فقد التفّوا حوله أوّل الأمر، ثمّ ضحكوا وتفرّقوا، وحسبوه مجنوناً، لكنّه لم يتوقّف، مرّ على بيوت البلد كلّها بيتاً بيتاً، وبدأ العيال يلتفّون حوله ويمشون خلفه، يصفّقون ويشيرون إليه: المجنون أهو! وكثيراً ما أوقفه الناس ليسألوه: ما لك يا عمّ عبد الرسول؟ بُعد الشرّ عنك! لكنّه ما كان يجيب، فقط يضرب على طبلته زاعقاً وكأنّه لا يرى أحداً أمامه، حتّى انتهى من جولته فاستدار عائداً، وفكّر أنّ أحداً في البلد كلّه لا يصلح للقيام بما كان يقوم به، وأنّ عليهم أن يبحثوا منذ الآن. وواجهته مشكلة لم يفكّر فيها من قبل، أين سيدفنونه؟ الترب تملكها عائلات البلد، وكلّ عائلة لها تربها، وهو غريب وليست له عائلة، ولا توجد ترب للغرباء. وهزّ رأسه، سيتصرّفون على أيّة حال. وصل الآن إلى المقابر حيث يسكن، فتح باب العشّة وأسنده بحجر، وأمام الباب حفر حفرة صغيرة، لفّ الطبلة والجلدة في خرقة قديمة ووضعها في الحفرة، ردمها ودبّ عليها بكفّ يده حتّى تساوت بالأرض، جلس على باب العشّة وفرد رجليه أمامه، واستند بظهره لحائط البوص، وبجانبه وضع عصاه، وانتظر. وأمامه كانت ترتفع شواهد القبور، لامعةً في شمس منتصف النهار.

القاهرة